الرمز عند الصوفية بين المعايشة والممارسة

الأستاذ: كمال بوغديري

جامعة بسكرة، الجزائر

الملخّص:

عندما تصير اللغة مفتتح الوعى، ونشاطا رمزيا لإدراك الوجود و أشيائه، يصير الصوفي في مواجهة اللغة يصارعها عندما يتعسر عليه إيجاد المعنى في ظل الخفاء الذي تمارسه.. عندها يتوسع ويبالغ ويفرط ويدقق ويلمح, حتى إذا قصرت العبارة على الإيفاء بالدلالة، وصعبة الإحاطة بها، توهج النص في خضم ما أباحته اللغة من أسرار وخفايا لاسيما في ظل تعقيد الرؤية الصوفية ليبلغ في محطات أخرى استحالة الإمساك به « لأنّ المتصوف يعلن للمتلقى أنّ معارفه لا تحصل بالعقل والبرهان بل تصدر عن ذوق ومجاهدة ».

Résumé:

Quand le langage devient une prise de conscience inauguré actif qu'on peut reconnaître symboliquement la présence et les activités, devient un visage mystique, il sera difficile de trouver un sens à l'existence humaine ...si l'expression de soufis est difficile à apprendre, c'est dut aux textes choisis .la langue soufis a des secrets et des mystères, surtout à la lumière de la complexité d'une vision mystique de l'autre station parce que la mystique annonce que le destinataire ne reçoit pas la connaissance de la raison et de la preuve, mais délivré par le goût et l' effort . "

مقدّمة:

عرف العالم الإسلامي ظاهرة ارتبطت بالدين الإسلامي، ألاَ وهي "التصوف" وهو نزوع ذاتي تأملي يعتمد على خيال الفرد وتجربته وذوقه ويهتم على الخصوص بالنفس وصفاتها. وقد عرف عند المسلمين في القرن الثاني للهجرة أما قبل ذلك فكان الصوفي يسمى زاهداً، وهو من ترك ملذات الدنيا سعياً للفوز بالجنة واقتداءً بالنبي وصحابته في الزهد، ثم تطور وأصبح نظاماً له اتجاهات عقائدية وعقلية ونفسية وسلوكية. ومن مظاهره الإكثار من الصوم والتقشف في المأكل والملبس، ونبذ ملذات الحياة والتجرد عن ضروراتها.

لذلك يمكن القول أن التصوف ظهر في مرحلة من مراحل تطور الزهد. ارتبط التصوف بالمجاهدات والرياضات النفسية، وانصب جل اهتمامه على الروح. والطريقة الصوفية تنقسم إلى مواقف هي المقامات والأحوال. المقام والحال اصطلاحان يستخدمها الصوفي للدلالة على مكانته في الطريقة الصوفية وما يأتيه من رحمة الله[1].

كانت غاية الصوفية على اختلافهم يتصورون طريقا واحدا يسلكونه من أجل معرفة الله سبحانه وتعالى يبدأ بمجاهدة النفس ويتدرجون فيه شيئا فشيئا من خلال مراحل متعددة تسمى عندهم بالأحوال والمقامات. إلا إنه لا تعدد في وجوه التصوف، إنما التعدد في أحواله ومقاماته التي ينبني عليها الوجه الأوحد للتصوف وهو التوجه لفاطر السموات والأرض في كل حال، ويظهر هذا الوجه في قوله تعالى: ((**إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ حَنِيفًا وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ**)) [2].وقوله عز وجل: (**قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ**)) [3].

يحدثنا الصوفية عن تجربتهم الذوقية التي تعجز اللغة العادية في غالب الأحيان عن احتوائها فلا يجدون ملجأ غير التعبير عن ذلك بوسائل أخرى شعرا ونثرا أمثال كبار الصوفية "كابن سبعين" [4]. و"فريد الدين العطار" [5] و "ابن الفارض"

.وغيرهم[6]. فما هي إذن العلاقة التي تربط الصوفي بالرمز؟ و ما هي مستويات هذه العلاقة خلال رحلة استكشافه للمقدس.؟

من أبرز ما يميز الطريق الصوفي في القرنين الثالث والرابع الهجريين هي اصطناع أصحابه لأسلوب الرمز في التعبير عن حقائق التصوف. ويطلعنا "أبي القاسم القشيري" [7]. في (رسالته) على الدوافع التي حفزت أولئك الصوفية إلى اصطناع الرمزية في التعبير قائلا: «اعلم أنه من المعلوم أن كل طائفة من العلماء لهم ألفاظ يستعملونها، انفردوا بها عمن سواهم، وتواطئوا عليها لأغراض لهم فيها من تقريب الفهم على المخاطبين بها، أو تسهيل على أهل تلك الصنعة في الوقوف على معانيهم بإطلاقها.

وهذه الطائفة -يقصد الصوفية- يستعملون ألفاظًا فيما بينهم يتم بها الكشف عن معانيهم لأنفسهم، والستر على من يُبَايِنُهُمْ في طريقتهم؛ لتكون معاني الألفاظ مستبهمة على الأجانب، غَيْرَةً منهم على أسرارهم أن تشيع في غير أهلها، إذ ليست حقائقهم مجموعة بنوع تكلف، أو مجلوبة بضرب تصرف بل هي معانٍ أودعها الله تعالى قلوب القوم واستخلص لحقائقها أسرار قوم» [8].

يتبين من كلام "القشيري" أنه أصبحت للصوفية في القرنين الثالث والرابع لغة اصطلاحية خاصة، اتفقوا عليها فيما بينهم، بحيث يفهمونها هم ولا يفهمها غيرهم، بل إنها مبهمة على من ليس بصوفي؛ لأن هذه اللغة تعبر عن أسرار وحقائق ذوقية وَهَبَهَا الله للصوفية، وهم يخشون أن تشيع هذه الحقائق وتلك الأسرار بين مَنْ ليسوا أهلًا لها. وَيُنَبِهُ القشيري هنا -أيضًا- إلى أن الصوفية كانوا يسترون معانيهم عن الأجانب عنهم. ولذلك كانت العلاقة بين الصوفي والرمز علاقة حميمية لا يستعيض عنها بغيرها حيث يمكن أن نلحظ هذه العلاقة من خلال مستويين اثنين: مستوى محاولة الصوفي تفكيك رموز "كتاب الوحي" و"كتاب الكون" من خلال بحثه واستكشافه للمقدس. مستوى محاولته التعبير عن تجربته الصوفية من خلال الرمز وعن لجوء الصوفية إلى الرمز للتعبير عن أذواقهم أسباب سنفصلها. إن علاقة الصوفي بالرمز على المستوى الأول علاقة وطيدة، حيث أن

الصوفي في هذا المستوى يشبه الفيلسوف، بطريقة ما فهو يحاول أن يستنطق المجهول باحثاً عن ماهيات الأشياء، وكينونتها التي يصعب الوصول إليها من خلال الشروط السفلى التي لا تحترم سمو الأهداف وعلوّها [9].

يحاول الصوفي على هذا المستوى قراءة رموز الكتابين كتاب الوحي وكتاب الكون للتفكر في آيات الله من أجل معرفته فهو يلجأ في تجربته هذه إلى التعبير عن طريق الرمز لأنه يرى أن اللغة عاجزة عن التعبير عن ما يخالج قلبه من ذوق وعلوم لدنية [10].

وفي قصة حارثة وحديثه عن أنه أدرك تمام الإيمان دلالة كبرى على قدرة كبيرة للنبي صلى الله عليه وسلم على قراءة علامات إيمان حارثة، حيث روي عن الحارث بن مالك الأنصاري أنه مر بالنبي – صلى الله عليه وسلم – فقال له : " كيف أصبحت يا حارثة ؟ قال: أصبحت مؤمنا حقا. قال: " أنظر ما تقول، فإن لكل قول حقيقة فما حقيقة إيمانك ؟ قال: عزفت نفسي عن الدنيا، فأسهرت ليلي، وأظمأت نهاري وكأني أنظر عرش ربي بارزا وكأني أنظر إلى أهل الجنة يتزاورون فيها، وكأني أنظر إلى أهل النار يتضاغون فيها. قال: " يا حارثة عرفت فالزم " [11].

أورد الإمام البخاري –رحمه الله تعالى– في كتاب: الإيمان: باب: حلاوة الإيمان. قال: حدثنا محمد بن المثنى قال: حدثنا عبد الوهاب الثقفي قال: حدثنا أيوب عن أبي قلابة عن أنس عن النبي –صلى الله عليه وسلم– قال: " ثلاث من كُن فيه وجد حلاوة الإيمان: أن يكون الله ورسوله أحب إليه مما سواهما، وأن يحب المرء لا يحبه إلا لله، وأن يكره أن يعود في الكفر كما يكره أن يقذف في النار ". فيه قوة بالغة في الدلالة على فكره المتقد وذكائه الفائق وفراسته الموجهة بنور الوحي كما فيه دلالة أيضا على تنزيله على أرض الواقع وتفعيله للأمر الإلهي" اقرأ " فالكون مليء بالآيات التي ينبغي للمسلم أن يُفعل [12].قلبه بذكر الله عز وجل ليستطيع قراءة الكون القراءة المطلوبة.

الصوفي وتفكيك الرموز أثناء قراءة الوحي وقراءة الكون

في خضم التجربة الصوفية يزاوج الصوفي بين قراءة الوحي وقراءة الكون من أجل الظفر بالمطلوب وهو الوصول إلى اللاَ منتهى واللاَ وصول، يقول تعالى "وأن إلى ربك المنتهى" [13].

وهذا لا ينقص من التجربة الصوفية بل يعلي من قيمتها لأن الصوفي مهما عرف، فإنه لا يزداد إلا معرفة بحقيقة كونه جهولا. لأن وصول الصوفي إلى المعرفة هو وصول تيه وحيرة، ولقد أشار "ابن عربي" إلى هذا المعنى في كتاب "الإسفار عن نتائج الأسفار" ضمن "رسائل ابن عربي"، حيث يقول: "الأسفار" ثلاثة لا رابع لها أثبتها الحق عز وجل، وهي سفر من عنده، وسفر إليه، وسفر فيه وهذا السفر فيه هو سفر التيه والحيرة". إن أول أمر إلهي يستحضره الصوفي أثناء سيره الروحي من أجل الوصول إلى المطلوب هو الأمر الإلهي إقرأ والمقصود بالقراءة هنا، كما يرى الدكتور طه جابر العلواني قراءتان قراءة الوحي و كذا قراءة الكون [14].

قراءة الوحي أي الكتاب المبين الذي نزل على محمد خاصة، والإنسانية عامة. لأن كان المخاطب المباشر في الآية هو الرسول صلى الله عليه وسلم، والمقصود بالقراءة في هذا الأمر الإلهي هو الإنسان بصفة عامة حتى يستطيع أن يحسن خلافة الله في هذه الأرض وتبليغ الأمانة لمن يخلفه من أجيال لاحقة، فتُعلمهم الكتاب والحكمة فيتزكون بذلك ويحملون المشعل من بعدك. أما قراءة الكون فهي كما سماها "طه جابر العلواني" قراءة الكون والنظر في الخلق ومعرفة ما دونته الإنسانية من تجارب فيه ومن فهم له. لذلك فالقرآن نفسه ينبه إلى هاتين القراءتين فيحث على تدبر الكتاب، كما يحث على التفكر في آيات الله والاعتبار بالأمم السالفة. لذلك فلا غنى لطالب معرفة الحق من القراءتين قراءة كتاب الوحي وقراءة كتاب الكون. تفكيك الرموز أثناء قراءة القرآن الكريم.

يغوص الصوفي في إدراك معنى المصطلح القرآني انطلاقا من منهجه المعتمد على المحاولة الدائمة لإدراك كنه الأشياء وانطلاقا أيضا من قناعته بأن

الفهم درجات ففهم المبتدئ ليس هو فهم المتقدم وليس هو فهم الراسخ في العلم وهذه الحقيقة تؤكدها السنة النبوية، جاء في المستدرك على الصحيحين كتاب الأدب، أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: "إن عيسى ابن مريم عليه السلام – قام في بني إسرائيل فقال: "يا بني إسرائيل لا تتكلموا بالحكمة عند الجاهل فتظلموها ولا تمنعوها أهلها فتظلموهم" [15].

يرى الدكتور عبد الحليم محمود في هذا السياق في كتابه عن "الطريقة الشاذلية (16). ن الإنسان لا يصير بمجرد قراءته، متصوفًا، على أن ما كتبه كبار الصوفية لا يفهمه إلا من كان أهلاً [17].

وفي نفس السياق قد يسمع الصوفي الخطاب مختلفا عما سمعه الآخر ويؤول ذلك بأن كلا يسمع الخطاب حسب الموقع الذي يتواجد فيه في الطريق. ومن طريف ما يحكى عن هذه القضية، ما جاء في المقدمة الثانية من كتاب "المنح القدسية" في بيان فهم القوم من اللفظ الواحد معان مختلفة "للشيخ أحمد العلاوي"، قال: "وقد سمعنا مِنْ أهلِ الطريقة أنَّ ثلاثةً سمعوا مناديًا عشَّابًا يبيع السعتر البرِّي فيقول: "يا سَعْتر بَرِّي"، ففهم كل واحد منهم مخاطبةً عن الله مختلفةً عن الآخر. فسمع أحدهم: "اسعَ ترى بِرِّي" وسمع الآخر: "الساعةَ ترى بِرِّي"، وسمع الثالثُ: "ما أوسع بِرِّي". فالمسموع واحد واختلفَت الأسماع. قال تعالى: "قَدْ عَلِمَ كُلُّ أناسٍ مَشْرَبَهُم". وفي مثل هذا المعنى قال الإمام الجيلي في عينيته المشهورة:

إذا غرَّدَت ورقا[ء] على غصنِ بانةٍ *** وجاوبَ قُمْريٌّ على الأيكِ ساجعُ

فأُذْنيَ لم تسمعْ سوى نغمـةِ الهوى *** ومنكمْ فإنِّي لا مِنَ الطيرِ سامـعُ

فربَّما تكون الكلمةُ ظاهرُها قبيحٌ فيستفيد منها العارف أمرًا حسناً. إنَّ القوم وإنِ اشتركوا مع غيرهم في ظاهر اللفظ فإنهم مختلفون في القصد. فكما أنهم اشتركوا في المشهود واختلفوا في الشهود فكذلك اشتركوا في المسموع واختلفوا في الأسماع. قال تعالى: ((**وفِي الأَرْضِ قِطَعٌ مُتَجاوِرَاتٌ وجَنَّاتٌ منْ أَعْنَابٍ وزَرْعٌ**

ونَخِيلٌ صِنْوَانٌ وَغَيْرُ صِنْوَانٍ يُسْقَى بِماء واحِدٍ ونُفَضِّـلُ بَعْضَهَا على بَعْضٍ فِي الأُكُلِ. إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُون)) [18].

فمع أنَّ النباتاتِ تشربُ من ماء واحد فهي مختلفة. قد يسمع الصوفي ما لا يسمع غيرُه فلا يأخذُ من القول إلاَّ أحسنَه. وهؤلاء هم الذين قال الله تعالى فيهم: "الذين يستمعون القول فيتَّبعون أحسنَه. أولئك الذين هداهم الله وأولئك هم أولو الألباب" [19]. وفي هذه القصة التي يرويها الصوفية كثيرا دلالة عميقة تنبه لها علماء الدلالة المحدثين أمثال تشومسكي فيما يسمى النحو التوليدي والتحويلي et transformationnelle générative grammaire ولشرح هذه النظرية نورد قصة مفادها أنه بينما كان "الغورو [20].

يصلي بأتباعه صلاة المساء في المعبد السيخي، وكلما قاموا للصلاة في المساء تأتي قطةٌ وسط المصلِّين وتلهيهم عن صلاتهم، فأمر "الغورو" بربطها، فربطوها، حتى انتهت الصلاة، واستمر خادم المعبد يربط القطة أثناء صلاة المساء حتى لا تشغل المصلين، واستمرت العادة على ربط القطة وقت الصلاة حتى توفي الغورو فاستمر أتباعه على ربط القطة وقت الصلاة، وإطلاقها بعد انتهاء الصلاة، إلى أن نفقت القطة، فجاء أتباع الغورو الذين لا يعرفون سببا لربط القطة بقطة أخرى ليربطوها وقت الصلاة كما كانت عادة الغورو... وبعد ذلك بقرون كتَبَ الفقهاءُ من تلاميذ الغورو رسائلَ فقهية في المغزى الشعائري لربط قطة أثناء إقامة الصلاة[21] .

توضحُ لنا هذه القصةُ كيف تتلقَّى الجماعةُ الرسالةَ اللغوية. إذْ إنها تتعلَّق بحرفية الرسالة تعلُّقًا يُنسيها السياقَ الذي قيلَت فيه هذه الرسالةُ والمغزى الكامنَ وراءها كانت رسالةُ الغورو الموجهة إلى تلاميذه هى: "اربطوا القطة". هذه الجملة بصيغة الأمر هي البنية السطحية structure de surface للرسالة (بحسب النحو التوليدي والتحويلي grammaire générative et transformationnelle عند تشومسكي). أمَّا البنيةُ العميقةُ (structure profonde) لتلك الرسالة فهي: "عندما يكونُ هناك قطةٌ تُزعِجُكم أثناءَ إقامتِكم الصلاةَ فاربطوا هذه القطةَ حتى تنتهوا من

الصلاة. أيْ أنَّ مُرادَ القول vouloir dire أو المقصودَ منه هو: الانتباهُ والحضورُ وعدمُ تشتيت الفكر في أثناءِ الصلاة. وليسَ المقصودُ فِعْلَ ربط القطة في حد ذاته ولا القطةَ أيضًا. لكنَّ المجموعةَ التقفَت أو تلقَّتِ الأمرَ بحرفيته ناسيةً عن جهلٍ منها أو كسلٍ عقلي سياقَ الأمر والمغزى منه. لم يكنْ مؤدَّى أمرِ الغورو إحضارَ القطة وربطَها، أيْ ليس جلبَ المشكلة، بل إبعادها إذا كانت موجودة. ولكنَّ الذهن البشري مبرمَجٌ على إشغال نفسِه بخلق مشكلة وبالبحث عن حل لها. وهكذا فالصوفي يفهم مصطلحات الخطاب القرآني حسب السياق الذي قيل فيه كما يفهمه أيضا حسب المقام والحال الذي هو فيه.

يغوص الصوفي بالفهم في الخطاب القرآني فيخرج بفهم أعمق في كل مرة يرتقي فيها وخير مثال نورده في هذا المقام الفرق بين تفسير أهل الظاهر وأهل الباطن ويقصد بهم الصوفية لقوله تعالى في سورة الكهف في آيات قرآنية ثلاث يقص فيها الحق سبحانه مرافقة سيدنا موسى عليه السلام لسيدنا الخضر ذلك العبد الصالح فيقول تعالى في الآية الأولى على لسان الخضر ((فأردت أن أعيبها))، وفي الثانية ((**فأردنا أن يبدلهما ربهما خيرا منه زكاة وأقرب رحما**))، وفي الثالثة ((**فأراد ربك أن يبلغا أشدهما ويستخرجا كنزهما رحمة من ربك**)). يرى الصوفي أن هذا الاختلاف في التعبير عن إرادة الفعل له حكمته ولم يأت عبثا وهكذا فكل تعبير من هذه التعابير له علومه وخصوصياته فهذه الكلمات الثلاث هي حقيقة السير والسلوك إلى الله تعالى، وهي التي تصاحب العبد من أول الأمر في حياته إلى نهايتها يبين الصوفي المصري أبو العزايم [22].

أنه: في المرحلة الأولى أثبت الخضر لنفسه وجودا عبر عنه بقوله (فأردت)، أي أن الخضر هو الذي أراد، مثل ما يقول الإنسان في بداية سيره وسلوكه لقد صليتُ وصمتُ وزكيتُ وحججتُ وأمرتُ بالمعروف ونهيتُ عن المنكر، وإثبات الوجود صدود وإن كان لا غنى عنه في البداية لأنني لم أترقى ولذلك أنسب العمل لنفسي في كل شيء، ففيها بيان مراد العبد، وفيها رؤية المريد لعمله (**وقل اعملوا فسيرى الله عملكم ورسوله والمؤمنون**) [23].

وقال تعالى:((إليه يصعد الكلمُ الطيب والعمل الصالح يرفعه) [24].

وبيان رمز (**أردت**) في قوله تعالى ((**وقاتلوا المشركين كافة كما يقاتلونكم كافة واعلموا أن الله مع المتقين**)) [25].

ففيها إثبات كينونة وإثبات وجود وله عمل وهو القتل. ولقول الخضر (**فأردت**) مذاق آخر ولأنها إرادة لفعل ظاهره عيب أمام الجميع .. فقد نسب العيب لنفسه وقال (**فأردتُ**) إذا ارتقى الإنسان في سيره وسلوكه إلى حضرة ربه فلا يكون له مراد ولكن يتحد مراده بمراد ربه وفى هذا رفعة مقام عبر الخضر عنها بـ (**أردنا**). وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يخبر أصحابه في البداية أن من يصلى ركعتين في جوف الليل له أجر كذا، وأشياء أخرى من هذا القبيل، وجزاء ذلك دخول الجنة، ورسول الله هو الصادق الأمين ولكن بعد أن حببهم في الإسلام وارتقوا في أعمالهم من الحسن إلى الأحسن وارتفع شأنهم الروحي قال لهم: (ما منكم من أحد يُدخله عمله الجنة ولا ينجيه من النار إلا برحمة من الله وفضل) قالوا: " يا رسول الله ولا أنت" ؟، قال:(ولا أنا إلا أن يتغمدني الله برحمة). (أخرجه أحمد). ورمز (**أردنا**) وهو اتحاد مراد العبد بمراد الرب في قوله تعالى (**قاتلوهم يعذبهم الله بأيديكم**) [26].

فالذي عذب هو الله ولكن بالأيدي التي ستستعمل لنوال الأجر العظيم. يعبر الإمام أبو العزائم عن ذلك وموجها قوله لربه مبينا مراد العبد ومراد الرب بقوله:

لا وحقك لا أحب ❋ أن أكون كما أريد

بل مرادي منك أني ❋ عن مرادك لا أحيد

يا مرادي بل وعوني ❋ أنت لي ركن شديد [27].

وبالترقي في مسيرة السلوك إلى ملك الملوك وبعد اتحاد مراد العبد بمراد ربه يخفى مراد العبد لينفرد مراد الرب، وهذه المكانة هي المعبر عنها بقوله سبحانه (**فأراد ربك**)، ورمزها قوله سبحانه للمؤمنين (...**فلم تقتلوهم ولكن الله**

قتلهم..) وقوله لرسول الله صلى الله عليه وسلم (..**وما رميت إذ رميتَ ولكن الله رمى**) [28].

فنفى القتل بعد أن أثبته لهم لينسبه لذاته جل وعلاَ ونفى الرمي بعد أن أثبته له صلى الله عليه وسلم ليثبته لذاته عز وجل. وبسمو هذا المقام تختفي أنت ببشريتك الحاجبة ليظهر هو سبحانه بأنوار تجلياته وأسراره ورسول الله صلى الله عليه وسلم يجيب على سؤال جبريل عن الإحسان فيقول: (أن تعبد الله كأنك تراه، فإن لم تكن تراه فإنه يراك) (حديث رواه البخاري ومسلم)، فإن لم تكن وانتفت كينونتك الحاجبة فإنك تراه، ولكن كيف تراه ؟ والجواب : فإنه يراك، أي تراه به لا بك، فكان سبحانه سمع العبد وبصر العبد ويد العبد مع نزاهته سبحانه وتعالى. لقد نقل الصوفي دلالة بعض المصطلحات القرآنية من وجود منطقي إلى وجود واقعي فهذا "الإمام الشاطبي [29].

الذي لا يُخفي سلوكه طريق التصوف وإن كان معروفا عند الفقهاء بضلوعه في الفكر المقاصدي، بل ويذهب إلى أن الصوفية من صفوة الخلق [30]. ينقل مصطلح العبدانية [31].

من المفهوم الخاص إلى المفهوم العام بمعنى أن الناس كلهم عباد لله بالاضطرار فما عليهم إلا الدخول في سلك المسلمين حتى يسموا عبادا لله بالاختيار. بنفس منهج الشاطبي يتعامل "ابن عربي" مع مصطلح قرآني آخر هو مصطلح التوكل فلا يميز ابن عربي المتوكل عن غيره كما فعل سابقوه حيث يرى أن كل إنسان متوكل بالاضطرار بمعنى شاء أم أبى لأن الفاعل الحقيقي لكل شيء وفي كل شيء هو الله تعالى. و ترى الدكتورة سعاد الحكيم في معجمها الصوفي أن جدلية ابن عربي هاته مع مصطلح التوكل لا تنتهي عند هذا الحد بل تعطي إثباتا بديلا يتميز المتوكل به عن المسمى في العادة غير المتوكل بالوعي (PRISE DE CONSCIENCE) فالمتوكل هو من وعى هذا الواقع التوكلي الحادث [32].

نفس المنهج نجده مع الصوفي الشهير "عبد القادر الجيلاني" في مفهوم السجود فسجود المسلم إنما هو السجود الاختياري في حين أن الكون كله ساجد لله تعالى بالاضطرار. يقول تعالى:((**ولله يسجد من في السماوات والأرض طوعاً وكرهاً وظلالهم بالغدو والآصال**)) [33].

يقول الجيلي:

أصلي إذا صلى الأنام وإنما * * * صلاتي بأني لاعتزازك خاضع [34].

إلى أن يقـــول:

فأسجد كي أفنى و أفنى عن الفنا ** * وأسجـد أخرى والمتيم والــعٌ.

-هكذا يتجاوز الجيلي ظاهر الشعائر الدينية إلى باطنها و جوهرها فيقول في الحج مثلا:

وإعفاء حلق الرأس ترك رئاستي * * وشرط الهي أن المتيم خاضع
وإذا ترك الحجاج تقليم ظفرهم * * تركت من الأفعال ما أنا صانع

فرأس البلية عند الصوفي هو حب الرئاسة والزعامة ورأس الفضيلة التواضع والخضوع أمام هيبة المتجلي الذي هو الحق سبحانه وعندما يتحلى الصوفي بهذه الخصال يسهل عليه التخلي عن الرذائل من الأفعال [35].

أسماء الأنبياء الواردة في القرآن الكريم اقترنت بصفات معينة قرأ الصوفي إشاراتها وعلم أن محبة الله لأصفيائه لا تمنع من اختلافهم في المقامات فكذلك مقامات أوليائه و مقامات الراسخين في العلم "علماء أمتي أنبياء بني إسرائيل" فهذا سيدنا موسى عليه السلام كليم الله ومحط تجلياته اتخذه الصوفية رمزا لطالبي الحق سبحانه واتخذوا من جبل الطور رمزا لتعلم أن يجعلوا من القلب جبلا كجبل الطور قابلا لاستقبال التنزلات الرحمانية.

فيقول احد الصوفية وهو ابن الفارض:

آنستُ في الحَيّ ناراً ** لَيْلاً فَبَشّـرْتُ أهلـي
قُلْتُ امْكُثُوا فَلَعَلّي ** أجِـدْ هُـدايَ لَعَلّتـي
دَنَوْتُ مِنها فكانَتْ ** نار المُكَلَّـمِ قَبلــي
نودِيتُ مِنها جِهاراً ** رُدّوا لَياليَ وَصلــي
حتى إذا ما تَدَانَى ** الميقَاتُ في جَمْعِ شملي
صارَتْ جِباليَ دكاً ** منْ هَيْبَةِ المُتَجَلــّي
ولاحَ سرٌ خَفيٌ ** يـَدْريهِ مَنْ كَانَ مِثْلي
وصِرْتُ مُوسَى زَمَاني ** مـذ صارَ بَعْضِيَ كلّي

اتخذ الله تعالى من "سيدنا إبراهيم" خليلا، لذلك يرى فيه الصوفية رمزا للكمال الإنساني بمعنى أن الله يتخلل إبراهيم وإبراهيم يتخلل جميع ما اتصفت به الذات الإلهية، ولكن بطبيعة الحال حسب الطاقة البشرية وهذا لا يعني تفرد إبراهيم بالخلة فالله سبحانه وتعالى يتخلل سائر الكائنات سواءً شعروا أو لم يشعروا يقول تعالى:((**وهو اقرب إليكم من حبل الوريد**)) (36).

وإنما فاز سيدنا إبراهيم بهذا الوصف القرآني لارتقائه الشعوري الواعي بمراقبة الحق في كل لحظة وحين، ويختلف المسلمون في قربهم من الله عز وجل بمقدار شعورهم ووعيهم بعبادتهم لله عز وجل، وهو ما يحاول الصوفي ترقيته في شعوره ووعيه، ولذلك أثنى الله سبحانه على المؤمنين الذين قاموا بتفعيل هذا المعنى في قلوبهم بقوله ((**قد أفلح المؤمنون الذين هم في صلاتهم خاشعون**)) (37).

ويرث الصالحون من هذه الخلة حسب طاقاتهم، وتظهر هذه الخلة حسب ابن عربي في مقام قرب الفرائض، وهو يشير في ذلك إلى حديث الولي المعروف الذي رواه الإمام البخاري الذي يقول فيه الرسول صلى الله عليه وسلم، فيما يرويه عن ربه عز وجل" (**مَنْ عَادَى لِي وَلِيًّا فَقَدْ آذَنْتُهُ بِالْحَرْبِ وَمَا تَقَرَّبَ إِلَيَّ عَبْدِي بِشَيْءٍ أَحَبَّ إِلَيَّ مِمَّا افْتَرَضْتُ عَلَيْهِ وَمَا يَزَالُ عَبْدِي يَتَقَرَّبُ إِلَيَّ بِالنَّوَافِلِ حَتَّى أُحِبَّهُ فَإِذَا أَحْبَبْتُهُ كُنْتُ سَمْعَهُ الَّذِي يَسْمَعُ بِهِ وَبَصَرَهُ الَّذِي يُبْصِرُ بِهِ وَيَدَهُ الَّتِي**

يَبْطِشُ بِهَا وَرِجْلَهُ الَّتِي يَمْشِي بِهَا وَإِنْ سَأَلَنِي لَأُعْطِيَنَّهُ وَلَئِنِ اسْتَعَاذَنِي لَأُعِيذَنَّهُ وَمَا تَرَدَّدْتُ عَنْ شَيْءٍ أَنَا فَاعِلُهُ تَرَدُّدِي عَنْ نَفْسِ الْمُؤْمِنِ يَكْرَهُ الْمَوْتَ وَأَنَا أَكْرَهُ مَسَاءَتَهُ).

الرمز والإشارة وسيلة الصوفي في التعبير عن تجربته الإشارة في المعجم تدل على الحركة الحسية التي يقوم بها الإنسان بكفه أو رأسه أو حاجبه أو عينه، يقال أشار يشير إذا أومأ بيديه أو لوح بهما، ويقال للسبابتين المشيرتان.

وقد أشارت السيدة مريم [38]. عليها السلام، إلى ابنها سيدنا عيسى عليه السلام لما استفسرها قومها عن مصدره الأبوي خصوصا أنها معروفة بالعفاف وكذا أهلها وإشارتها إليه قد تكون إما باليد أو الكف أو الرأس أو غير ذلك مما لم يفصل فيه القرآن والسؤال المتبادر للذهن هو لماذا لم تصرح بالتعبير اللغوي ولجأت إلى الإشارة، والمرجح في نظرنا أن لسانها كان مشغولا بذكر الله عز وجل حتى يخرجها الله من هذا المأزق خصوصا أنها نذرت للرحمن صوما عن الكلام إلا عن ذكر الله [39].عز وجل مقتبسة ذلك من أن الله سبحانه و تعالى أمر سيدنا زكرياء وهو من آل بيتها أن لا يكلم الناس ثلاثة أيام إلا رمزا كآية و علامة على استجابة الدعاء الذي كان قد توجه به سيدنا زكرياء إلى ربه بنداء خفي فبشره بالذرية الطيبة [40].

فيلتقط الصوفي مثل هذه الإشارات القرآنية بقلبه المتشوق لمثل هذه الأسرار القرآنية فيفيهم بأن ذكر الله تعالى هو الملجأ في السراء والضراء وهو الملاذ في حالتي الجمال أو الجلال، فلا ملجأ من الله إلا إليه. ولأن اللغة الحسية تضيق بالصوفي، فتجده يلجأ إلى الترميز فلا تفتأ اللغة الرمزية إذاك تدخل في دوائر الأنا المحس، والأين المحيّـز، والكيف على وفق هيئة متعينة و(المتى) وقيود الزمن الاعتباري، وإن كان الصوفي يوهم الوقوف عند المحسوسات، فذلك ليستر محبته، ويسدل الأستار على مكاشفاته، يمكن القول إننا بصدد حالة من ستر الأسرار عمن قبع في المحسوسات من الغير، ولعلك تلحظ هذا في ردة فعل ابن عربي الذي

ثار عندما حمل بعض الناس تغزله في نظام، ابنة شيخه، على ظاهره؛ فبادر إلى شرح ديوانه شرحا ذوقيا مؤسسا على التلويح وتجاوز حجب المحسوسات.

يلجأ الصوفي في التعبير عن تجربته إلى الإشارة والرمز لأن العبارة تكون صادمة في بعض الأحيان خصوصا لمن لم يدرك كنه المقصود، إما لدنو مرتبته عن مرتبة المتكلم، يقول الكلاباذي: "ومشاهدات القلوب ومكاشفات الأسرار لا يمكن التعبير عنها على التحقيق بل تعلم بالمنازلات والمواجيد ولا يعرفها إلا من نازل تلك الأحوال وحل بتلك المقامات أو لكون المصغي منكرا لحال القوم فيلجأ الصوفي لترميز أقواله حتى لا يفهمها إلا من يسلم له أحواله حتى يتم له صون أسراره عن أفهام المنكرين فتبقى عصية عن المنال والإدراك إلا لمن أدرك منازلهم في طريق القوم [41].

وهكذا فإن الصوفي يلجأ إلى الترميز عن طريق الإيماء والإشارة إما لغرض تقريب الفهم للأدنى مقاما من الصوفية أنفسهم أو المتعاطف معهم المسلم لعلومهم أو بهدف صون الأسرار والحفاظ عليها حتى لا يتخذها العذول المنكر لأحوالهم سلاحا للهجوم عليهم بالابتداع لمجرد عدم إدراكه لمقاصدهم.

يلجأ الصوفي إلى الترميز أيضا لان اللغة في نظره تبقى عاجزة عن احتواء كل ما يقذفه الذوق في قلبه من معان وأسرار و دلالات، يقول الإمام أبو العزايم " إن العبارة لا تفي ببيان المضنون من كلام العارفين، إنما هي أنوار وإشارات تذوق النفس منها على قدر ما وهبها الله إذ العبارة لا تكشف الحقيقة". وبين لنا الطوسي في (اللُمع) –أيضًا– معنى الرمز عند صوفية القرنين الثالث والرابع قائلًا: «الرمز معنى باطن مخزون تحت كلام ظاهر، لا يظفر به إلا أهله" [42].

وهذا يعني أن عبارات الصوفية لهذا العهد لها في الغالب معنيان، أحدهما: يستفاد من ظاهر الألفاظ. والآخر: يستفاد بالتحليل والتعمق. وهو المعنى الخفي. قال القناد [43]. "إذا نطقوا، أعجزك مرمى رموزهم. وإن سكنوا، هيهات منك اتصاله [44].

إن الرمز عند الصوفية معنى باطن مخزون تحت كلام ظاهر لا يظفر به إلا أهله فعلمهم إشارة فإذا صار عبارة خفي . إذا كان الصوفي يلجأ إلى الترميز من أجل صون أسراره عن العذول ومن هنا ينجم التساؤل التالي : هل كان الصوفية يكتبون لأنفسهم، ولم يكن من إرادة الصوفي المجذوب بالحال أن تظهر تجربته الروحية بخصائصها الذوقية؟.

وإذا كان الأمر كذلك فلماذا لم تظل هذه التجارب الروحية مدفونة في الصدور فمن أخص قواعد الصوفي أن صدور الأحرار قبور الأسرار وعلى ما يبدو أن القوم اعتمدوا الاستقطاب النخبوي في خطابهم وكانت كتاباتهم فيضا عاطفيا ترفع على سدود الأسرار فراحوا ينأون بخطابهم عن المتبادر إلى أذهان من هم خارج التجربة الروحية، وأحوجهم الاستقطاب النخبوي إلى الانزياح الدلالي، من الاستعارات والكنايات وأنواع المجاز، بل أحوجهم إلى اعتماد التواضع الذاتي بل ما يشبه الاصطلاح مع النفس، لذلك وقع هؤلاء المجاذيب بما يشبه الدائرة المغلقة مع أهل الظاهر المحكومين بالمحسوسات اللغوية الظاهرة، فأنكر هؤلاء أشد الإنكار على المتصوفة ما يجدونه في كتبهم من تلويحات خارج فضاء المحسوسات؛ ولأن هؤلاء المنكرين لم يشعروا أن القوم يسوحون في فضاء آخر، تظهر فيه الكلمات عارية عن معاني الدلالة المتواضعة.

إن الصوفي يُحَمل اللغة أكثر من طاقتها، وإذا كان يعتمد الصور الحسية والتمثيل الحسي المستمد من العالم الخارجي، فإنه يريد من ذلك التماس معاني جديدة علوية إذ الغائب المخبوء عند الصوفي هو الحقيقي والممكن، انه التلاشي في حضرة الفقد والمحو انه التحرر من الحضور من اجل تحقيق الوجود، فهو محو الأنا من اجل إثبات الآخر.

إن التصوف الإسلامي يرفض الثنائيات، ويدعو للوحدة، وحدة بين الذات والآخر، وبين الذات والموضوع بين الطبيعة والثقافة، بين الروح والجسد، وبين الإنسان والله، إن الصوفي لا يعتمد على نظام العقل والتفكير المنطقي منطلق مقولة: "أنا أفكر إذن أنا ربما موجود " فهو يريد الوصول إلى المجهول، هكذا فعل

الحلاج وابن الفارض وابن عربي. إنها رغبة الصوفي بالتوحد مع العالم، بين الذات والموضوع، وبين الناسوت واللاهوت. ففي حالة الوجد الصوفي يمحي الوجود ويتحول الصوفي إلى حالة من السكون والهدوء والركون، حيث يبلغ حالة خروج الإنسان من ذاته واتحاده بالجمال عند أفلاطون، والإله عند المتصوفة حيث يغيب في سنا جمال الخالق المعشوق، حيث تنتهي الثنائية ويعود العدم إلى العدم ولا يبقى إلا الله أن الرمز لا يمكن القطع في معناه بالضبط على وجه اليقين لذلك جاءت لغة الصوفيين مستغلقة على الفهم.

خاتمــة:من خلال ما سبق يتضح:

- أن علاقة الصوفي بالرمز علاقة لا غنى عنها سواء على مستوى علاقته بالمقدس عندما يحاول تفكيك الخطاب الإلهي عبر الآيات القرآنية أو الكونية (كتاب الله و كتاب الكون) أو على مستوى التعبير عن تجربته الذوقية التي يجد اللغة عاجزة عن مقاربتها مقاربة كاملة تحتوي جميع الدلالات الذوقية التي تخالج قلبه وفكره.
- أن الصوفي يجد شواهد من القرآن و السنة يؤصل بها لهذه العلاقة الحميمية بالرمز على المستويين.

إن رحلة الصوفي هي رحلة دائمة و مستمرة في البحث عن المقدس ووصوله في النهايات هو وصول نسبي مادام وصوله وصول تيه وحيرة في جمالية المقدس.

- الصوفي يغوص في المصطلحات لفهم معانيها الخفية (التوكل، الاضطرار،العبادة...الخ) ولا يقتصر على المعاني الظاهرة مما يبين رفعة مستواه الإدراكي بفضل جمعه بين مستويي الذكر والفكر المأمور بهما شرعا كل مسلم.
- الصوفي يستنبط من القصص القرآني المعاني التربوية التي تفيده في ترقية سلوكه التربوي الإيماني، كما رأينا في فهمه لمستويات الإرادة (أردت، أردنا، أراد ربك).

- الصوفي يلجأ لذكر الله عز وجل في كل أحواله سواء في السراء أو في الضراء إيمانا منه بأن ذكر الله عز وجل جالب لكل خير ودافع لكل ضر.

- الصوفي يلجأ للرمز إما لستر محبته الفياضة للخالق أو لستر علومه عن من لا يفهمها حتى لا تظلم الحكمة ويظلم الصوفي معها.

- أن الصوفي يفهم مصطلحات الخطاب القرآني حسب السياق الذي قيل فيه كما يفهمه أيضا حسب المقام والحال الذي هو فيه.

هوامش البحث

(1) قاسم غني، **تاريخ التصوف في الإسلام**، ترجمه : صادق نشأت، مراجعه: أحمد ناجي القيسي، محمد مصطفى حلمي، القاهرة: مكتبة النهضة المصرية، 1970، ص 80-81.

(2) سورة الأنعام، الآية: 79.

(3) سورة الأنعام، الآية: 17.

(4) عبد الحق بن سبعين، 614هـ، 1217، فيلسوف ومتصوف أندلسي، عرف بإضافاته التي عمقت طريق البحث الفلسفي ضمن إطار الدين يتسم خطابه بالرمزية وله تسميات مخصوصة في كتبه..

(5) **فريد الدين العطار**، متصوف من أصل فارسي، عاش في القرن، 11م ، من أشهر أعماله، "منطق الطير"، وفيها وصف الأودية السبعة التي قطعها وهي أودية العشق والمعرفة والاستغناء والتوحيد و، والحيرة والفقر والغنى هي رمز لمقامات السالكين، وقد جعلها على لسان الهدهد قائد الطير في هذه الرحلة.

(6) **ابن الفارض**، هو أبو حفص شرف الدين عمر بن علي، من أشهر المتصوفين غلب على أشعاره الحب الإلهي.

(7) **أبو القاسم القشيري**، الملقب بـ "زين الإسلام."إمام الصوفية، صاحب الرسالة القشيرية في علم التصوف، من كبار العلماء في الفقه والتفسير والحديث والأصول والأدب والشعر، (376هـ 465 - هـ).

(8) أبوالوفا الغنيمي التفتازاني، **مدخل إلى التصوف الإسلامي**، ، مكتبة الثقافة للطباعة والنشر، القاهرة: ، ط 2، 1976،ص 163- 168.

(9) صالح سميا، **الرمز في لغة الصوفية**، مكتبة المعرفة، الإسكندرية، 2010، ص، 48.

(10) **العلم اللَدني:** هو العلم الذي يأتي من لدن الله عز وجل يهبه لمن يشاء من عباده، قد يستخدمه المتلقي في فهم موقف من المواقف أو تفسير آية من آيات الله يفهم ينبئ عن عمق كبير يتحصل من هداية الله.

(11) حديث نبوي، رواه الحافظ أبو القاسم الطبراني.

(12) المصطلح الأكثر دلالة يستعمل بالفرنسية Activer وهو يترجم بالعربية بـ فعل تفعيلا .

(13) سورة النجم، الآية: 42.

(14) للمزيد أنظر: طه جابر العلواني في كتابه، الجمع بين قراءة الوحي وقراءة الكون. مكتبة الشروق الدولية بالقاهرة، 1984.

(15) أنظر : محمد بن عبد الله الحاكم النيسابوري، **المستدرك على الصحيحين**، دار المعرفة، الاسكندرية، 1998.

(16) الطريقة الشاذلية، طريقة صوفية تنسب إلى أبي الحسن الشاذلي مغربي الأصل حيث ولد سنة 571 هـ، تفقه وتصوف في تونس، وسكن مدينة (شاذلة) بتونس ونسب إليها، عرف بأسفاره في بلدان المغرب والمشرق، سكن الإسكندرية توفي بصحراء مصر عندما كان متوجها لبيت الحرام، سنة656 هـ

(17) عبد الحليم محمود، **المدرسة الشاذلية**، دار المعارف، القاهرة، ص، 360.359.

(18) سورة الرعد، الآية: 4.

(19) سورة الزمر، الآية: 18.

(20) **ناناك**، هو مؤسس السيخية ويسمونه "غورو" أي المعلم أو الإمام . ولد في1469 في بنجاب (باكستان)، نشأ نشأة هندوسية وعمل لدى المسلمين وكان محباً للإسلام ولتربيته الهندوسية مما دفعه للتقريب بين الديانتين. وعندما بلغ **الغوروناناك** الثلاثين من عمره, أختفى عن الأنظار لمدة ثلاثة أيام، ثم ظهر مدعيا أنه رسول من عند الله لكل الفئات وللصالحين والملتزمين من الأديان الأخرى.

(21) أنظر: أنتوني دو مولو، **أغنية الطائر**،(Comme un chant d'oiseau) ترجمة: أديب خوري، دار مكتبة إزيس، بيروت، لبنان،2000،

(22) **أبو العزايم**، شيخ طريقة، مصري، 1286 هـ 1869م،

(23) سورة التوبة، الآية: 105.

(24) سورة فاطر، الآية: 10.

(25) سورة التوبة، الآية : 36.

(26) سورة التوبة، الآية: 14.

(27) الشيخ محمد ماضي أبو العزايم، **كتاب التقوى، فصل موسى والعبد الصالح**، موقع أهل الصفا على شبكة الانترنت.

(28) سورة الأنفال، الآية: 17.

(29) أبو محمد القاسم بن فيرة بن أحمد الشاطبي نسبة إلى شاطبة، وهي مدينة بشرق الأندلس ولد عام 538 هـ كان كثيرالفنون، واسع العلوم متبحرًا في علوم الشريعة واللسان العربي، إمامًا في القراءات والتفسير و النحو واللغة، والحديث، والتفسير، كما كان أديبًا شاعرً..

(30) أنظر الإمام الشاطبي في **الموافقات**، يقول: "وقد بنوا نحلتهم على اتباع السنة وهم باتفاق أهل السنة صفوة الله من الخليقة.."

(31) **مصطلح العبدية** والعبدانية لله تعالى بدل العبودية لله تعالى وذلك في نظره لأن مصطلح العبودية له حمولة قدحية من استعباد واذلال، في حين أن العبدانية لله هي عين التحرر منطلقا من فهمه الخاص للحرية مفادها أن الحرية هي أن يتعبدك الحق باختيارك، أنظر طه عبد الرحمن، محاضرة بعنوان العمل الصوفي، وأخلاق الحرية.

(32) أنظر : سعاد الحكيم، **المعجم الصوفي**، ص، 18.17.

(33) سورة الرعد، الآية: 15.

(34) الجيلي، **النادرات العينية**، نقلا عن **كتاب فتوح الغيب للجيلاني**، شركة الحلبي، القاهرة، ط3، 1973، ص، 198.

(35) يختلف الصوفية في مناهج التربية فهناك من يذهب إلى أن التحلي يسبق التخلي معتمدين في رأيهم هذا على قاعدة فلسفية مشهورة، (التحلي قبل التخلي)

(36) سورة ق الآية: 16.

(37) سورة المؤمنون، الآية: 1.

(38) يقول الله تعالى في سورة مريم: ((**فأشارت إليه قالوا كيف نكلم من كان في المهد صبيا**)).

(39) يقول الله ل تعالى علي لسان السيدة مريم، في سورة مريم، الآية 26 ((**إني نذرت للرحمن صوما فلن أكلم اليوم انسيا**)).

(40) إشارة إلى قوله تعالى في حق سيدنا زكريا، وناداه نداء خفيا، قال ((**قال رب إني وهن العظم مني واشتعل الرأس شيبا ولم أكن رب شقيا وإني خفت الموالي من ورائي وكانت امرأتي عاقرا فهب لي من لدنك ولياً**)).

(41) الكلاباذي، **التصرف على مذهب أهل التصوف**، ص، 87.

(42) **نصر الدين الطوسي**، توفي 378هـ/ 988م"هو زاهد، كان شيخ الصوفية، على طريقة السنة لقب بطاووس الفقراء، له كتاب **اللُمع** في التصوف" وهو بمثابة موسوعة في التصوف الاسلامي، وكتاب "**طبقات الصوفية**".

(43) القناد، أبو الحسن وهو من صوفية القرنين الثالث والرابع، توفي عام 224هـ.

(44) ناجي حسن جودت، **المعرفة الصوفية، (دراسة فلسفية في مشكلات المعرفة)**، دار الجيل، بيروت، 1982، ص، 129.